معرض جديد لستار كاووش يستفيد من غرائبية المخيلة الشرقية واجتراحات الفن الحديث:

فنان يحب المغامرة فيخرج من فضاء التعبيرية الواسع ويتمرد

أمستردام ـ «القدس العربي»

ـ من عدنان حسين أحمد:

نظّم غاليري «Die Rooiperd» في مدينة إنكهاوزن الهولندية معرضاً شخصياً جديداً للفنان التشكيلي ستار كاووش، من 30 نيسان (ابريل) ولغاية 21 أيار (مايو) 2006. وقد ضم المعرض الذي انضوى تحت عنوان «أصابع كاووش» 22 لوحة فنية ومن بينها أربع لوحات تنتمي إلى أسلوب اليوغندستيل، وهذه اللوحات هي على التوالي، «احتضان، المساء الهادئ، وداع الشتاء، إمرأة من الكريستال». وطالما أن أسلوب اليوغند ستيل «Jugendstil» هو الوجه الآخر لحركة «الفن الجديد» الفرنسية «Art Nouveau» فيجب أن نسلّط بعض الضوء على هذه الحركة أولاً كي نلامس تجلياتها في اليوغندستيل أو «الفن الشبابي»، فهو في النهاية جزء من تيار الفن الجديد الذي انضوى تحت أسماء معينة في بلدان أوروبية أخرى. بدأت حركة «الفن الجديد» منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين، وتحديداً منذ عام 1880 حتى عام 1915. وتميزت هذه الحركة بأسلوب فني زخرفي أنيق تمتد جذوره إلى حركة «الفنون والحرف» البريطانية. أصبح الفن الجديد معروفاً ورائجاً في البلدان الأوروبية وأمريكا.

ومن أشهر فناني هذه الحركة أوبري بيردسلي، غوستاف كليميت، ألفونس موشا، والفنان الأمريكي (صانع الأقداح الزجاجية) لويس كومفورت تيفاني. بقي «الفن الجديد» شعبياً حتى بدء الحرب العالمية الأولى ثم استبدل أخيراً بأسلوب فن الديكور. يحيل الفن الجديد الحركة الفنية الطليعية Avant-garde التي بدأت في غرب أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وبهذا الأسلوب تمرّد الفنانون على طريقة الفن الكلاسيكي. إن الفن الجديد هو أسلوب في المعمار، والنحت، والرسم، والفنون التطبيقية والزخرفية. وجدير ذكره أن الفنانين والمعماريين الأوروبيين كانوا فخورين عندما يُنعَتون بصفة الصُنّاع المَهَرة أو الحرَفيين البارعين في فنهم، هذا إضافة إلى أن الفنان الطليعي غالباً ما يُتقن مهارات فنية مختلفة، فضلاً عن اجتراحه لأفكار وأساليب جديدة لم تُطرَق من قبل. تأثر الفن الجديد بأكثر من مدرسة فنية مثل «ما قبل الرافائيلية» وبالأزياء اليابانية، وبالباروك وما إلى ذلك. كما أنه ينطوي على مضامين حلمية وأكزوتيكية تتضمن رموزاً جنسية، وتتعاطى مع فكرة الموت والإنبعاث.

النوفو آرت بأسماء متعددة

وعوداً على بدء، فإن الفن الجديد هو حركة فنية عالمية حديثة لها أسماء مختلفة في عدد من الدول الأوروبية ففي ألمانيا تسمّى بـ «اليوغند ستيل»، Jugendstil، وفي إيطاليا «ستيلا ليبرتي» Stile Liberty، وفي النمسا سسيشن Sezession، وفي إسبانيا موديرنستا، أو موديرنزمو Modernista Modernismo، وقد حققت هذه الحركة بتسمياتها المتعددة نجاحاً منقطع النظير في الزخرفة والفنون التطبيقية. وكان معرض الكتاب العالمي في باريس هو التظاهرة الحقيقية التي كشفت عن قبول الذائقة الجماهيرية العامة بهذه الحركة الفنية. ويميل النقاد والمؤرخون الفنيون إلى الاعتقاد بأن هذه الحركة قد جاءت كرد فعل طبيعي للثورة الصناعية التي أحدثت عامل الوفرة والغزارة في الإنتاج، لذلك جاء التركيز على هذا الأسلوب الذي يتطلب مهارة عالية، وحرفية متقنة، وتمكّن من الصنعة لكي تقف إزاء ما تقدمه المكائن والآلات الحديثة التي غزت بمنتجاتها الأسواق العالمية. غير أن منتجات هذه الحركة كانت غالية الثمن، لذلك لم يكن بإمكان الطبقات الفقيرة من اقتنائها، الأمر الذي جعلها حكراً على الأثرياء والموسرين.

قبل عشرين عاماً من بدء حركة الفن الجديد، أي في عام 1860 بدأت التجارة مع اليابان تتطور، وتأخذ طابعاً شمولياً، فقبل هذا التاريخ كانت اليابان تعيش في عزلة تامة ولقرون زمنية عدة. وعندما شاهد الفنانون الأوروبيون الكليشهات المطبوعة سواء على الخشب أو القماش أو المواد الأخرى سمّرتهم الدهشة، ووقفوا منبهرين أمام الأزياء اليابانية، وما تنطوي عليه من زخارف جميلة لافتة للانتباه.

وقد تأثر بها في الحال عدد كبير من الفنانين الأوروبيين لعل أبرزهم فان كوخ وغوغان وتولوز لوتريك، ورهط كبير من فناني الآرت نوفو، بما فيهم جماعة اليوغند ستيل التي تمركزت في المناطق الناطقة باللغة الالمانية. ومن بين المؤثرات الواضحة للعيان استعمالهم مساحات مسطحة وملونة وبتصاميم بدت غريبة أول الأمر لأن مبدعيها لم يستعملوا المنظور الذي يبين تأثرهم الصارخ بالفن الغرافيكي الياباني. لا شك في أن ستار كاووش هو فنان تعبيري بامتياز، وقد كرّس قرابة ثلاثة عقود من حياته لهذه المدرسة الفنية. ومن المصادفات الغريبة أن ينقطع هذا الفنان للمدارس الفنية التي نشأت وتطورت في ألمانيا. مدرسة اليوغند ستيل، تمثيلاً لا حصراً، انبثقت في مدينتين ألمانيتين هما ميونخ وبرلين، بالإضافة إلى انبثاقها في دول أوروبية أخرى مثل بريطانيا واسبانيا وإيطاليا، والنمسا، وفرنسا، وبلجيكا. ويبدو أن كاووشاً نفسه لم ينتبه إلى وجود اللمسات اليوغندستيلية في أعماله الفنية، بل إن هناك ثيمات يوغندستيلية تهيمن على عدد غير قليل من منجزه الفني. وقد نبّهه بعض من الفنانين الهولنديين الذين زاوا معارضه الأخيرة، وأشرّوا على السمات والخصائص اليوغند ستيلية في تجربته الفنية. ورغم ثقتي الكاملة بأن كاووشاً قارئ من الطراز الرفيع لتاريخ الفن التشكيلي، وتحديداً للتيارات والمدارس التي يرسم ضمنها، ويطوّر بحوثه الفنية فيها، كالانطباعية، والتشخيصية، والتعبيرية، والتعبيرية التجريدية، والتكعيبية، والسريالية، والبنائية، والنوفو آرت، والبوب آرت وما إلى ذلك من تيارات وأساليب يمحضها حباً من نوع خاص.

ولأن كاووش الذي يحب التجديد، والتنويع، والمغايرة دؤوب ولكي لا يقع في فخ الرتابة والركود، فلا بد له بين أن وآخر أن يخرج ولو جزئياً من إطار التيار الفني الواحد، ويتمرد عليه. وعلى الرغم من أن فضاء التعبيرية هو فضاء واسع ويتيح للفنان القدرة على المغايرة والتنويع إلا أن كاووشاً وجد ضالته في الفن الجديد، بنكهته الألمانية التي أشرنا إليها سلفاً وهي اليوغندستيل أو الفن الشبابي، فلقد نجح هذا التيار الفني في أن ينتشر ويتوسع خارج إطار الفنون الجميلة، ويمتد إلى المطبوعات، والبوسترات، والمجوهرات، والأزياء، والعمارة، والفنون الزخرفية، والتطبيقية، والتجارية أيضاً. وهناك فنانون عالميون أغرتهم هذه التجربة أمثال ألفونس موشا وغوستاف كليمت وأوبري بيردسلي وغيرهم من الذين أنجبتهم حركة «الفنون والحرف» في بريطانيا على وجه التحديد. ولا بد من الإشارة هنا إلى حركة «Vienna Secession» وهي حركة فنية انفصالية تمردت على قواعد الفن الصارمة، وخرجت من قبضتها، وانفتحت على الفنون الأخرى، وربما يكون غوستاف كليمت هو أفضل نموذج في هذا الإطار لأن كاووشاً يحب تجربته الفنية، ويتمثلها على الدوام، بل إن هناك عدداً غير قليل من التعالقات الإبداعية بين كليمت وكاووش، وهي لا تخرج عن التأثر والتأثير والإبداعيين، فلكل منهما بالنتيجة عالمه الداخلي الخاص.

نماذج تطبيقية

سأتناول في هذه الدراسة النقدية أربعة أعمال فنية لكاووش من بين 22 لوحة فنية احتضنتها صالة «Die Rooiperd» لسبب واحد وهو محاولة تكريس هذا البحث للأعمال التي يتجلى فيها أسلوب اليوغند ستيل، مُمنياً النفس بتناول بقية الأعمال الفنية في دراسة لاحقة. وهذه الأعمال هي «احتضان»، «المساء الهادئ، وداع الشتاء، وامرأة من الكريستال»، « وفي هذه الأعمال الأربعة ثمة معمار، وديكور، وزخرفة، وأزياء، وشبكة من العلاقات الخفية التي تؤسس لبنية كل لوحة تشكيلية على حدة. فليست هناك أية لوحة من هذه اللوحات الأربع من دون موضوع، غير أن أهمية الثيمة بالنسبة لكاووش تأتي دائماً في المرتبة الثانية بعد الشكل. وربما يقودنا هذا الأمر إلى التذكير بأن الفنان كاووش معجب بالعوالم الفنية لفنانين من طراز النمساوي غوستاف كليمت، والهولندي يان توروب، و النحات الإسباني أنتونيو غاودي، وفي أعمال هؤلاء الثلاثة ثمة حب وعشق وولّه يذكرنا بعوالم «ألف ليلة وليلة» وكاووش هو إبن بغداد البار، ووريث هذه العوالم السحرية والعجائبية التي تجترحها المخيلة الشرقية. في لوحة «احتضان» ثمة لقاء عاطفي، فيه عناق، وقُبَل محمومة، وتوحّد، وحرارة إنسانية تشع بدفئها الرومانسي على المتلقين، وتخدّرهم، وتقدح في أذهانهم شرارة الذكريات، وتقود كل مشاهد منهم إلى ماضيه، أو تجعله معلقاً بين هوة الماضي السحيق وحافة الحاضر الراهن. ليس ما يقترحه كاووش هنا هو الثيمة فحسب، وإنما الاستمتاع البصري بالشكل، وبالعلاقات الداخلية المبنية فوق السطح التصويري، والمُعتمدة على التوازن بين ثنائية الداخل والخارج كما هو حال الشخص الذي يتوارى في الزاوية العليا من أفق اللوحة، وبين العاشقين اللذين يستمتعان بهدوء المساء خارج إطار اللوحة، وكذا الحال بالنسبة للكلب الذي يتلاشى في أفق اللوحة الداخلي، والقط الذي يشرئب برأسه خارج إطار اللوحة المفترضة.

وهذه الثنائية الجذابة تتكرر في لوحة «وداع الشتاء»، فالنافذة هي اللوحة المفترضة، بينما تقف المرأة خارج إطارها حتى لتبدو وكأنها أحد المشاهدين الذين جاؤوا لزيارة هذا المعرض، وليست فيكراً من فيكراته الاساسية. وقد اعتمد كاووش على هذه الخدعة البصرية في عدد غير قليل من أعماله الفنية. إذن يمكن القول إن كاووشاً قد أفاد في هذه اللوحات الأربع من العمارة، والديكور، والزخرفة، كما أفاد على وجه التحديد من الأزياء اليابانية التي توشحت بها أغلب شخصياته النسائية التي كانت تتمترس خلف أبعاد رمزية، وتعبيرية، ويوغند ستيلية بالدرجة الأساس. وإذا كان كليمت فناناً يوغند ستيلياً خالصاً، فإن إيغون شيلله هو نصف تعبيري، ونصف يوغندستيلي، وتولوز لوتريك هو نصف انطباعي، ونصف يوغندستيلي، أما كاووش فهو تعبيري دائماً، ومرشح لأن يكون يوغند ستيلياً لمدة من الزمن، ثم يغادر هذا الأسلوب إلى أسلوب آخر أكثر دهشة وإبهاراً كما توقعت له في كتابي النقدي «أطياف التعبيرية» والذي كرّسته لتجربته الفنية التي جاوزت ربع قرن من الزمان. يعيش كاووش دائماً في بيئتين، ومناخين، وعالمين، يلتقيان ويفترقان من دون أن يدري، ولكنه يدرك تماماً أن لوحته اليوغند ستيلية لا بد أن تأخذ من بغداد شيئاً وتتضمخ به كما تضمخت «إمرأة من الكريستال» بعطر ألف ليلة الباذخ حتى وإن جاءت محشورة في بنية «عين» تكعيبية تأخذ فيها صورة المرأة موضع الحدقة من العين. إن تحطيم إطار اللوحة كما في «السماء الهادئ»، أو الخروج منه كما في «وداع الشتاء»، أو التحرر منه نهائياً كما في «احتضان» هو تذكير متعمد للمشاهد بأعمال نحتية ومعمارية كانت تخرج على الإطار أو تتمرد عليه، كما تتمرد الأسود أو النصب النحتية الأخرى، وتشرئب ليس برؤوسها فحسب، وإنما تطل بأجسادها كاملة من الهيكل المعماري العام للبناية. وربما يكون من المفيد الإشارة إلى التقنيات المتعددة التي استعملها كاووش في إنجاز لوحات هذا المعرض، ولعل أبرزها التعويل على ثنائية «التراكم والتعرية» اللونية أولاً، ثم اتباع أسلوب الحك والشطب، والترقيش بعدد كبير من الفراشي والسكاكين والأدوات الحادة.

عملان للفنان العراق ستار كاووش (القدس لعربي)

تداعيات

هدى لا تعرف شيئًا عن «التجميع»...

فراس خطيب*

■ هدى لا تعرف أنّ عمير بيرتس وزير من دون ماض عسكري وعليه ألا «يخيب أمل» ناخبيه. لا تعرف أنه يصادق في الأيام الأخيرة مرةً تلو المرة على جرائم حرب ضد الانسانية، لترتوي سيرته الذاتية دماً فيرتقي عندها إلى مستوى وزراء حرب إسرائيل السابقين. هدى، لا تعرف نتائج استطلاع «هآرتس» يوم الخميس الماضي حين قال الاسرائيليون إنهم لا يثقون بعمير بيرتس. ولا تعرف هدى ما قاله الوزير الاسرائيلي ديختر حين هدّد بتحويل غزة إلى مدينة للأشباح في جلسة الحكومة. كل ما عرفته هدى أنها تريد أن تبني تلة صغيرة من رمل الشاطئ لتحميها من الموج الهادئ يومها...

هدى، لا تعرف ماذا يعني السبق الصحافي حين يحتدم نقاش الصحافيين الغرباء على باب غرفتها في المستشفى متوسلين مقابلتها لتحكي لهم عن ذلك اليوم. ولا تعرف أنّ الحديث معها أهم من أولمرت في ذلك اليوم، أو أصبحت أهم منه حين وقعت تلك القذيفة التي جرفت معها أرواح اخوتها الخمسة وأمها ووالدها دون أن تعلم. كل ما تعرفه هدى أنّ القذيفة حالت دون بناء حلم التلة الرملية الصغيرة... هدى، لا تعرف أنّ جملة «أريد العودة إلى حضن والدي واخوتي» هي السبق الصحافي في ذلك اليوم!

هدى لا تعرف شيئًا عن «التجميع» ولا عن القسام الذي وقع قريباً من إحدى البيوت المهجورة في سديروت. هدى لا تعرف سديروت أصلاً. لا تعرف أنّ الاسرائيليين يتمنون رداً فلسطينياً في كل لحظة ليقولوا للعالم إن حكومة حماس «حكومة إرهاب». لا تعرف أن أولمرت يريد من حماس أن تكون حكومة إرهاب، ليقول إن لا شريك فلسطيني لتنفيذ «التجميع». هدى لا تعرف ماذا يعني الشريك الفلسطيني. شريكها الوحيد هو تلة الرمل الصغيرة على ذلك الشاطئ.

سيقولون لهدى إنها فقدت عائلتها في تلك القذيفة، سيقولون لها إنها لا تستطيع العودة إلى والديها. ستسألهم عن اخوتها، سيقولون لها هم أيضاً شهداء، ولم يتبق منهم سوى اختها الصغيرة. ربما تعرف هدى معنى الشهادة لكثرتها، لكنّها لن تعرف ماذا يعني استشهاد أمها ووالدها واخوتها في يوم مشمس على شاطئ غزة قبل أن تريهم تلة الرمل الصغيرة التي بنتها...

هدى واختها ستكونان اختين في اسطورة واحدة في شعب كثرت فيه الأساطير. ستتحدثان عن التاسع من حزيران، كيف وقعت القذيفة في قلب العائلة ومزقتها... ستحدثها اختها (باكية أم لا... لا فرق)، كيف صرخت من أعماق الشاطئ حين شاهدت والدها نازفاً. ولن تحدثها عن «تأسف» وزير الأمن ولا «استنكار» الاتحاد الأوروبي. لن تقول لها إن الأمريكيين دعوا الإسرائيليين للتفكير بنتائج أعمالهم. بالنسبة لهما سيظل اليوم ثقباً في الذاكرة وثقباً في التاريخ. لن تلوم هدى أحداً من العالم، لكنّ العالم كله سيلومها حين تنفجر في أحد المقاهي في تل أبيب..

* صحافي وكاتب فلسطيني يقيم في حيفا

فيلم «اوقات فراغ» يطرح تساؤلات عن ضياع جيل الشباب

■ القاهرة ـ (ا ف ب) ـ من رياض ابو عواد: لقي فيلم «اوقات فراغ» لمحمد مصطفى الذي قدم في عرض خاص مساء الاحد الماضي في نقابة الصحافيين المصريين ترحيبا من غالبية النقاد والمخرجين والمشاهدين، الذين اعتبروا انه اول فيلم شبابي يطرح مشاكل هذا الجيل من منظار ابنائه ويستخدم لغتهم ورؤيتهم ليعرض الضياع الذي يعيشونه.

وما يميز هذا الفيلم هو ان معظم المشاركين فيه على اعتاب العشرين حتى ان كاتب السيناريو انتهى من كتابته وعمره 17 عاما.

والفيلم تأليف عمر كمال وبطولة احمد صدقي وكريم قاسم وعمرو عابد والشاعر احمد حداد (حفيد الشاعرين فؤاد حداد وصلاح جاهين) الذين يقومون بالتمثيل لاول مرة، الى جانب رندا البحيري وصفا تاج الدين.

وقالت الناقدة علا الشافعي التي ادارت الندوة التي تبعت العرض انه «تجربة مهمة ومغايرة لواقع السينما القائمة، وبغض النظر عن نقاط الضعف الموجودة في السيناريو فان الفيلم يعتبر اقرب الى حياة الشباب اليومية».

وتابعت ان «الفيلم يصف حياة الشباب اكثر من كونه دراما شبابية، حيث يرصد حالة الارتباك والتخبط التي تعيشها شريحة كبيرة من هؤلاء في ما يتعلق بالعلاقة مع الاهل والدين والمخدرات والجنس».

ورات في ذلك «انعكاسا لحالة ارتباك حقيقية تعيشها بلادنا وان هذا هو السبب الرئيسي في الفجوة الكبيرة بين الجيل والمجتمع حيث الامل مفقود والطموحات غير موجودة والاهتمام مفقود باي قضية عامة».

من جهته قال الناقد محمد صلاح ان «معالجة الفيلم للقضايا اليومية التي يناقشها الشباب تعرضت للمحرمات الثلاثة اجتماعيا وهي الدين والجنس والمخدرات، فمشاهد الفيلم تطرح علاقة الاصدقاء الاربعة مع تعاطي المخدرات واقبالهم على الجنس الى جانب حواراتهم الدينية غير الواضحة في ذهنهم».

فمشاهد الفيلم تصور في غالبيتها تعاطيهم المخدرات الى جانب ملاحقة الفتيات ومحاولة اشباع رغبتهم الجنسية المحمومة التي ظهرت في اكثر من مشهد مثل اجتماع ثلاثتهم مع فتاتي ليل ومشهد القبلات المتبادلة داخل دار عرض بين شابين من الشلة وطالبتين في الثانوية.

كما يجمع مشهد اخر الاصدقاء الاربعة مع فتاتين في سيارة يتبادلون فيها القبلات قبل موت احدهم تحت عجلات سيارة مسرعة عندما خرج من السيارة لشراء زجاجة بيرة وكانه نوع من العقاب له لتخليه عن تدينه.

قص

عمر الحافلة القصير

محمود قتاية*

■ كنت اجلس بشرفة منزلي أقرأ جريدة الصباح وبجانبي عكازي الخشبي.. قلت لنفسي وقد أحزنني ما قرأت: شتان ما بين إعلان وإعلان، لقد أعادني ما قرأت إلى يوم أن قرأنا بفرح منذ عامين إعلانا توهجت له وجوهنا وأشرقت.. يومها هتفت زينب عباس:

ـ تحيا إدارة الشركة!

وقال سيد متولي عضو مجلس إدارة النقابة:

ـ كللت جهودنا بالنجاح!

قلت في نفسي يومها: أخيرا أحسوا بمتاعبنا!

ودخلت علينا إلهام مصطفى تقرأ الإعلان بصوت عال غير مكترثة بما إذا كنا قد علمنا به أم لم نعلم:

ـ قررت إدارة الشركة تسيير أوتوبيس لنقل الموظفين، يقوم من أمام مقر مركزها الرئيسي، مارا بباب الخلق، وشارع بورسعيد فشارع الجيش وينتهي مساره في مصر الجديدة!

ونسيت إلهام نفسها وتمايلت وهي تمشي نشوانة ثم أردفت وهي تجلس:

ـ أنا لا آتي إلا بالأخبار السعيدة!

قالت هدى عبد الحليم وهي تضحك:

ـ أنت إلهامنا بالسعادة يا إلهام..

قامت إلهام فرحة وقبلتها وهي تقول:

ـ هذا من أصلك الطيب يا بنت الأصول!

***

بعد أسبوع.. وقف الأوتوبيس أمام الشركة في نهاية العمل، اتجه كل راكب إلى مقعده الذي حددته له الإدارة.. كان مقعدي خلف السائق.. كنت أرى في المرآة الأمامية الفرحة تطل من عيون الجميع خلفي.. وثمة إحساس بالرضا بدا على الوجوه. لم أشاهد تزاحما فالكل يعلمون أن لكل واحد مقعده!

وبعد أن جلس الجميع قام سيد متولي فوزع خريطة بمسار الأوتوبيس إلى محطات وموعد القياد من كل محطة..

حين تحرك الأوتوبيس قال سيد متولي باسما:

ـ لأن إدارة الشركة تحبكم واستجابة لمطالب النقابة فقد عينت لكم سائقين اثنين في واحد، هو الرجل الطيب الأسطى حسنين.. علما بأنه ليس من حقكم إلا حسن واحد!!

قالت إلهام مصطفى وهي تضحك:

ـ شكرا للإدارة، وشكرا للنقابة، وشكرا للأسطى حسن وحسن!!

قالت زينب عباس:

ـ طريق السلامة يا أسطى حسنين.

***

في الأوتوبيس استوقفتني أشياء كثيرة، رأيت الرجال يهتمون بمظهرهم وحرص الشباب على أن يكونوا في أحسن صورة تتدلى من ياقات قمصانهم الكرافتات الجميلة..

وما زلت أذكر ذلك الفتى الحالم شريف عبد الوهاب وبيده دائما ديوان شعر.. يمضي وقت الرحلة في القراءة.. والأستاذ رضا يوسف وهو في مقعد خلفي لا ترتفع عيناه عن الصحيفة اليومية حتى محطة الوصول.. ورمزي يس وهو يتحدث عن أفضل السبل لاستثمار المدخرات.

وبدأت أسمع حديثا لم أتعوده من قبل في أي مركبة كنت استقلها وأنا ذاهب أو عائد من العمل.

أذكر أن حمدية رضوان قالت يوما:

ـ سلامتك يا ماري، لم تأت أمس.. لعله خير؟

ـ عادل مريض، قعدت معاه..

ـ ألف سلامة، ربنا يطمئنك عليه..

ـ شكرا..

بالجانب الآخر.. قريبا مني، كانت تجلس زينات عمران.. سمعتها تقول ذات يوم:

ـ جاءنا أمس، عريس لابنتي إحسان..

ـ ردت سهير عبد الحميد التي تجلس بجانبها:

ـ ألف مبروك يا أختي.

ـ شكرا يا سهير، تبادلنا الترحيب والمجاملة إلى أن نسأل عنه!

ـ ربنا يتمم بخير..

ـ ربنا كريم ويقدرنا! عقبال ابنك حسام..

وابتسمت وهي تنظر نحو سامية عبد الله التي عينت بالشركة.. وهي فتاة آية في الجمال والاحتشام..

قالت سهير: ربما يقدم ما فيه الخير بعد العيد بإذن الله..

ردت زينات: ربنا يفرحك يا اختي ويتمم بخير..

ارتفع صوت إلهام: سمعنا يا أسطى حسنين غنوة تفرّح!

قلت: ليكن بصوت خفيض يا أسطى.. حسب التعليمات!

قالت إلهام: السمع المحترم هو الصوت الهادي يا ريس، نعم الرأي يا ريس! كل سنة وحضرتك طيب!

ـ وأنتم طيبون.

***

مضت أيام وشهور، مضت سنة وسنة أخرى، عشنا في الأوتوبيس أيام حلوة ومرت علينا أيام حزينة، مضى بنا يوما إلى منزل زينات عمران لتهنئتها بزفاف ابنتها، وفي يوم لبست فيه السيدات ثيابا سودا ومضينا نحو الكنيسة لنعزي ماري في وفاة زوجها.. ويوما لاحظت أن سهير عبد الحميد قد جلست بجانب الموظفة الجديدة سامية عبد الله تتلقى التهاني على عقد قران ابنها إلى سامية!

مرت أيام أسدلت فيها الستائر داخل الأوتوبيس لتخفف من حرارة شمس الصيف، ومرت أيام حرك الأسطى حسنين مساحات المطر، ومرت أيام كان الجميع فرحين بحصولهم على حوافز مضاعفة بعد تحقيق أرباح متميزة للشركة، ويوم كئيب خفضت فيه الحوافز لعدم تحقيق كامل الخطة المستهدفة.

ولا أنسى يوما انتقلنا بالأوتوبيس في العودة إلى المستشفى في مصر الجديدة لزيارة إلهام وهي مريضة.. ما زلت أذكر ما قالته إلهام يومها حين أقبلنا عليها، ابتسمت ثم بكت وهي تقول:

ـ أنا لي أهلان، ناس في بيتنا وناس في الأوتوبيس، أنا حائرة لا أعرف من أحب منهم أكثر..!

مضت الأيام والشهور، كان الأوتوبيس يتعثر أحيانا، ويسرع حينا، لكنه في كل الأحوال كان يحملنا في أمان ذهابا إلى مقر العمل وإيابا إلى بيوتنا..

إلى أن جاء يوم.. كان يوما من أيام الخريف والدنيا من حولنا مغبرة وسحابة سوداء تحجب سماء القاهرة.. وكانت الصحف تعلن بين يوم وآخر عن بيع شركات القطاع العام الخاسرة، ولما كانت شركتنا من الشركات الناجحة التي تحقق دائما فائضا في الأرباح، كنا مطمئنين إلى أنها لن تباع.. لكننا اليوم بعد أن قرأنا عن شركات ناجحة مثل شركتنا معروضة للبيع خيم الحزن والقلق على قلوبنا.. وعلقت على الخبر هدى عبد الحليم قائلة:

ـ هذا يعني أن شركتنا سوف يأتي عليها الدور وتباع..

ردت زينب عباس:

ـ تقولين شركتنا؟ أنت طيبة يا اختي.. لن تصبح شركتنا بعد الذي قرأناه!

فجأة بعد أن عبرنا كوبري الفردوس متجهين إلى مصر الجديدة، وقبل أن نصل إلى مبنى بانوراما أكتوبر، وقبل أن تطالعنا الشوارع الفسيحة والعمارات المزدهرة بمصر الجديدة.. وبينما كان شريف عبد الوهاب يقرأ في ديوان الشعر، ورضا يوسف ينظر في الجريدة، وسامية عبد الله تحمل العروس الجميلة اللعبة التي اشترتها لطفلها المنتظر.. وبالقرب منها ماري تضع كيسا به خبز وفاكهة إلى جانبها.. فجأة قطعت علينا الطريق عربة ضخمة مسرعة في جنون تجر مقطورة تتمايل وتهدد المركبات المارة برعونة سائقها واستهتاره.. فجأة.. صدمتنا.. أحدثت فينا الزلزال والإعصار والبركان.. ما زالت المشاهد في ذاكرتي حية مفزعة رغم مرور الأيام والشهور، لن أنسى نظرة الرعب التي قفزت من عيني السائق الطيب الأسطى حسنين وشهقات الفزع وصراخ الرجال وبكاء النساء!

ما زلت أذكر اللحظة الفارقة التي أنقذتنا باحتضان سيد متولي لي.. وتعود الغصة إلى حلقي وأنا أستعيد صور المأساة.. الضاحكة إلهام، العروس الجميلة سامية، ماري الصبورة الحزينة التي ترعى أولادها بعد رحيل زوجها، شريف فتحي الحالم مع قصائد الشعراء، سيد متولي الذي لن أنسى شهامته ورجولته وتضحيته وهو يحتضنني!

يوقظني رنين التليفون.. كانت زينب عباس.. قالت:

ـ هل قرأت المنشور بالجريدة عن بيع شركتنا يا ريس؟

ـ نعم ويا ليتني ما قرأت!

ـ الشيء الذي لا تعرفه ولم ينشر.. هو أن الذي اشترى شركتنا هو مسرور الناجي!

ـ من هو مسرور الناجي؟

ـ صاحب شركة مسروركو.. مالك العربة التي حطمت أوتوبيسنا.. هو خصمنا في القضية المرفوعة من الشركة عليه!

ـ صرخت: هل هذا معقول؟.

***

قبل أن أقف متوكئا على عكازي، وأنها أتهيأ لمغادرة الشرفة.. أعدت قراءة خبر بيع شركتنا، كان وجه إلهام الذي تعودت أن أراه ضاحكا يطل من بين السطور مقطبا وحزينا، وديوان الشعر بالقرب من جثمان شريف عبد الوهاب ممزق الأوراق، على حين كانت أرغفة الخبز وحبات البرتقال بالقرب من ماري مبعثرة بين المقاعد الخالية!

فجأة خيل إلي أني أرى العروس اللعبة تنفلت من يد سامية عبد الله الغارقة في دمها، وتقف.. وراحت تنظر إلي وقد تشوه وجهها.. كانت مقطبة الجبين!

* كاتب من فلسطين